خطبة صلاة الجمعة 16/8/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(قلَّة التَّكاليف)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِه الله فهو المهتَد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:78].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء:28].

أخرج ابن حبان في صحيحه: أن رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ الله، وَصَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأَدَّيْتُ الزَّكَاةَ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَقُمْتُهُ، فَمِمَّنْ أَنَا؟، قَالَ: «مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ».

عنوان خطبة اليوم:

(قلَّة التَّكاليف)

أيها الإخوة:

درس العلماء آيات القرآن الكريم كلَّها، وأحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وفروع الشَّريعة، فوجدوا التَّشريع الإسلامي قائماً على أسس ثلاثة، سمّوها أسس التَّشريع الإسلامي، هذه الثلاثة هي:

1) رفع الحرج.

2) قلَّة التَّكاليف.

3) التَّدرج في التَّشريع.

فعلى رفع الحرج بُنيت الشَّريعة، وعلى قلَّة التَّكاليف أُقيم التَّشريع الإسلامي، وعلى التَّدرج في التشريع رُفِعَتْ أعمدةُ هذا الدِّين.

وما يهمني في خطبة اليوم الأساس الثَّاني للتَّشريع، وهو قلَّة التَّكاليف.

أتذكرون حديث النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم في المرأة: «**إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ**» [رواه أحمد وابن حبان].

إنها قلَّة التَّكاليف.

أتذكرون الرَّجل الذي جاء إلى النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم يطلب نصحه، فقرأ عليه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا، ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ**» [رواه أبو داود].

إنها قلَّة التَّكاليف.

أتذكرون يوم جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فَقَالَ: عَلِّمْنِي شَيْئًا وَلاَ تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعِيهِ، وفي رواية: عَلِّمْنِي شَيْئًا وَلاَ تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعِيهِ.

قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**» [رواه الترمذي].

إنها قلَّة التَّكاليف.

الآن وبعد أن انتهى رمضان وتسابق فيه المتسابقون من أهل الخير في الأعمال الصَّالحات وفي الخيرات والمبرات. فبين صيامٍ وقيامٍ، وبين صدقةٍ وزكاة، وبين برٍّ بمسكينٍ وكفالة يتيمٍ، وبين إيواءٍ لشريدٍ وتشييعٍ لشهيدٍ، وبين مجلس علمٍ ومجلس ذِكْرٍ... ما المطلوب منَّا بعد رمضان؟

إذا كان الله تعالى عفا عنك في ليلة القدر، والعفو هو المحو والإزالة، بمعنى أنَّه جلَّ جلاله محا وأزال من صحائفك آثار الذُّنوب بالكليَّة. محاها من ديوان الكرام الكاتبين، ولن يطالبك بها يوم القيامة، وسَيُنْسِيْك أنَّك فعلتها كي لا تستحيي منها عند تذَكُّرِها.

بل إنَّه جلَّ جلاله يُثْبِت مكان كلِّ سيئةٍ حسنةٍ.

إذا كانت صحائفك عادت بيضاء نقية كيومِ ولدتك أمك، فما المطلوب منك بعد رمضان حتى تحافظ على بياض الصَّحيفة ونقاء السَّريرة.

المطلوب أمورٌ ثلاثةٌ، وأظنها تندرج تحت العنوان العريض للخطبة -قلَّة التَّكاليف-.

أمورٌ ثلاثةٌ بها تحفظ مكاسب رمضان وترقى بها.

أمورٌ ثلاثةٌ بها يسلم رمضان بل تسلم السَّنَة كلُّها.

أمورٌ ثلاثةٌ إن عشت بها عشت حميداً، وإن مُتَّ عليها مُتَّ سعيداً.

ما المطلوب منَّا بعد رمضان؟

المطلوب ثلاثةٌ: ترك الحرام، وإتقان الفرائض، وأداء ما استطعت من النوافل.

ويعينك على هذه الثَّلاثة سرٌ أفشيه لك في آخر الخطبة.

أما ترك الحرام: فقد قال صلَّى الله عليه وسلَّم: «**اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ**» [رواه الترمذي وأحمد].

وليعلم المرء فينا أنَّ الحرام سمٌ يفسد الإيمان، ولئن قلتُ الحرام فالمراد: الإصرار عليه والاستمرار به، وأمَّا زَلَّة القدم فمن منَّا لا تزلُّ قدمه ولا يهفو ويسهو؟!

أرأيت إلى مزارع عنده بقرةٌ تحلب له كلَّ صباح عشرين ليتراً من الحليب، وفي المساء عشرين، يبيع الحليب ليقتات بثمنه هو وعيالُه.

أرأيت إليه بعد أن يجمع الحليب في إنائه أيضع فوقه السمَّ أم من السُّم يمزجه؟ فماذا سنصنع بالحليب عندئذٍ؟!

إنَّ الإصرار على الحرام هو ذلك السُّم الذي يُفْسِد ما أصلحت في رمضان، ويشوِّه ما جَمَّلْتَ في رمضان.

لذلك ترى الصَّالحين حريصين كلَّ الحرص ألا يقعوا في الحرام، وإن وقعوا فيه أسرعوا الفيئة.

أيها الإخوة:

(أمَّا الحرام فالمات دونه) شعارٌ يرفعه الصَّالحون ليحافظوا على مكاسب رمضان ومكاسب أعمارهم من الأعمال الصالحات.

– العلاقة غير الشرعية مع فتاةٍ لم تتزوجها، ولم تعقد عليها، حرامٌ، وترك الحرام أوَّل مطلوبٍ منك بعد رمضان.

– المال المأخوذ غصباً، أو رِشوة، أو سرقة، أو اختلاساً، أو نهباً، حرامٌ، وترك الحرام أوَّل مطلوبٍ منك بعد رمضان.

– الاعتداء على أموال النَّاس، أو أعراضهم، أو أنفسِهم، حرامٌ، وترك الحرام أوَّل مطلوبٍ منك بعد رمضان، لكي تحافظ على مغانم الصِّيام والقيام.

قال الله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:120].

وأما إتقان الفرائض: فقد جاء في الحديث القدسي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**» [رواه البخاري].

يقول المربون: سيِّدنا إبراهيم عليه السَّلام خليلُ الله، وإنَّك تصِل مقام الخُلَّة إنْ عملت بشروطه، وأوَّل شروط الخُلَّة الموافقة، فالخليل يوافق خليلَه.

ونحن لا نعلم شيئاً نوافق به ربنا إلَّا شرعَه، فما فرض فرضناه، وما استحب استحببناه، وما أباح أبحناه، وما كره كرهناه، وما حرَّم حرَّمناه.

فمهما أتقنت فرائضك: صلواتك الخمس، وصومَ رمضان، وأداء زكاة مالك، وحجَك مرةً في العمر إن استطعت إليه سبيلاً، وبرَّ والديك، وحفظك زوجَك وأولادك، فأنت تقترب من مقام الخُلَّة.

سُئل حاتم الأصم: كيف تصلِّي؟

فقال: إذا حانت الصَّلاة أسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أُريد الصَّلاة فيه، فأقعد حتى تجتمع جوارحي، ثمَّ أقوم لصلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصِّراط تحت قدمي، والجنَّة عن يميني، والنَّار عن شمالي، وملكَ الموت ورائي، وأظنُّها آخر صلاة لي، ثمَّ أقوم بين الرَّجاء والخوف: أكبر تكبيراً بتحقيقٍ، وأقرأ قراءةً بترتيلٍ، وأركع ركوعاً بتواضعٍ، أسجد سجوداً بتخشعٍ.

ثمَّ أطلب من الله تعالى أن يتقبلها منِّي.

إنَّ إتقان الفرائض ثاني ما هو مطلوبٌ منك بعد رمضان.

أما المطلوب الثَّالث الأخير فأداء ما استطعت من النَّوافل: لأنَّ النَّوافل تزيدك من الله قُرْباً، وتُسْقِيك من ماء المحبَّة حُبّاً، فإذا ازددت قُرْباً وسُقيت حبّاً صرت ممَّن ينظر بنور الله، وينطق بأمره، **«وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»** [رواه البخاري].

والنَّافلة لغةً: الزِّيادة، وهي كلُّ ما زاد على الفريضة من صومٍ وصلاةٍ وصدقاتٍ وبرٍّ وعلومٍ وخيراتٍ.

أيها الإخوة:

هذه ثلاثةٌ مطلوبةٌ منَّا بعد رمضان، لنحافظ على مكاسب رمضان:

1. ترك الحرام.
2. وإتقان الفرائض.
3. وأداء ما استطعت من النَّوافل.

ويعين على هذه الثَّلاثة أن تعمل بها سرٌ هذا أوان إفشائه لكم، إنه:

مجلس علمٍ كلَّ أسبوعٍ، ومجلس ذِكْرٍ كلَّ يومٍ.

فبالذِّكْرِ تُعَان على الوساوس والشَّهوات، وبالعلم تُعَان على الشَّكوى والشُّبهات.

نور الذِّكْرِ يُطْفئ نارَ الشَّهوة، ونور العلم يُبَدِّدُ ظلمة الشُّبهة.

يُذَكِّرُك مجلس العلم بترك الحرام، وإتقان الفرائض، وأداء النَّوافل، ويدفعك مجلس الذِّكْرِ للعمل بما ذَكَرْت.

أيها الإخوة:

قلَّة التَّكاليف أساسٌ من أُسُسِ التَّشريع الإسلامي، ومطلوبٌ منَّا بعد رمضان ثلاثة: ترك الحرام، وإتقان الفرائض، وأداء ما استطعت من النَّوافل.

ويعينك عليها: **مجلس علمٍ كلَّ أسبوعٍ، ومجلس ذِكْرٍ كلَّ يومٍ.**

قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: **«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا...»** [رواه البخاري].

والحمد لله رب العالمين